مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١٣ (العدد ١) ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ م

المرأة الـــــزوج في أشعار الصعـاليك الجاهليين

د. عبد الكريم يعقوب
أستاذ في كلية الآداب والعلـــوم الانسانية بجامعـــــــة تشريـــــــن

أمينة موســـــــى
طالبة الدراسات العليا في كليـــة الآداب والعلوم الانسانيـــــــة بجامعة تشريـــــن

تعالج هذه المقالة علاقة الصعلوك بالمرأة الزوج ، وتبين مكانتها في نفســـــه وحياته وشعره ، وقد وضحنا فيها أهمية الزوج للصعلوك ، بصفتها مطلبا حياتيا شديد الأهمية له ، وقيمة فنية رفيعة في شعره . وسلطنا الضوء ، من خلال محاوراتـــــه معها وأحاديثه اليها ، على المشاعر والأفكار التي يحملهـا كل منهما للآخر ، والتـــي تصور بمجملها ، وبما فيها من جوانب ايجابية كثيرة ، وسلبية قليلة ـ عمـــــق الرابطة ، ومتانة الصلة ، وتجذر دفء العلاقة وحميميتها بين الطرفين ، وهمـــــا يقطعان معا مفازة حياتهما الشاقة .

تعددت صور المرأة في شعر الصعاليك واتخذت أبعادا متنوعة ، وتحدد موقـــف الصعلوك حسب صلتها به وقربها منـــــه ، فكانت زوجا وأما وحبيبة وبنتا ..

لقد بدت المرأة في شعر الصعاليـــك ندا لهم في كثير الأحيان ، فرأوا فيها كائنا يستحق أن يشاركهم همومهـــــــم وطموحاتهم ، ويقف الى جانبهم وقـــــت الضيق والفرج ، انها لا تشكل ماضيـــــا بالنسبة لهم ، يرثونه ، وينشدون علـــى أطلاله ، بل هي امرأة واقع ، انهـــــا الزوج في أغلب الأحيان ، ذلك الحاضـــر الذي يعملون لأجله ، ويكافحون في سبيـــل المحافظة عليه ، وتأمين الحياة الحـــرة الكريمة له .

تألقت زوج الصعلوك بصفتها قيمة فنية وحياتية رفيعة ، وقد تجسد هذا التألـــق الفني في حواره معها ، هذا الحوار الـــذي جاء بديلا عن الاستهلاليات الطليلة فـــي الشعر الجاهلي .

ف " حواء الخالدة " هنا " ليســت المرأة المحبوبة " التي يتدله الشاعـــر في حبها ، ويبكي أيامه معها ، ويقـــف على أطلال ديارها ، ويدعو أصحابه الـــى الوقوف معه ، ولكنها المرأة المحبـــة ، الحريصة على فارسها ، التي تدعوه دائما الى المحافظة على حياته ، ان لم يكـــن من أجل نفسه ، فمن أجلها هي "(١) .

وقد اتخذ الحديث مع الزوج فـــي هذه الأحاديث الاستهلالية أشكالا متعـــددة ، فكان يخاطبها بلهجة مفعمة بالود والتحبب ، وبألقاب متنوعة " فيها تكريم وإشعـــار بالعزازة " (٢) :

---

١ ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ٢٦٦

٢ ـ المرأة في الشعر الجاهلي .

يقول عروة بن الورد [1] :

سلي الطارق المعتر يا أم مالك
اذا ما آتاني بين قدري ومجزري
أيسفر وجهي انه أول القرى
وأبذل معروفي له دون منكر؟
وكثيرا ما عقد معها حوارات متنوعة ، بسط من خلالها سلوكه في الحياة ، وعرض لمختلف أعماله وفعاله ، تاركا لها المجال للبوح بما في داخلها من هواجس ومخاوف ، وأحاسيس ومشاعر ، كاشفا النقاب عن نفسية المرأة الميالة الى الاستقرار ، منصتا لصوتها الرافض لكل فعل يعرضه للمخاطر والأهوال قال عروة يذكر امرأته ونهيها اياه عن الغزو [2] :

أرى أم حسان الغداة تلومني
تخوفني الأعداء والنفس أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسرنا
ولم تدر أني للمقام أطوف
لعل الذي خوفتنا من أمامنا
يصادفه في أهله المتخلف
اذا قلت قد جاء الغنى حال دونه
أبو صبية يشكو المفاقر أعجف

فالحياة التي يحياها الصعلوك ، يحيط بها الخطر من كل جوانبها ، وهذا ماجعل زوجه مهددة بالثكل بشكل دائم ، مما دفعها الى الخوف على زوجها من خطر النهاية شبه المحتومة . والخوف من الموت باعث نفسي مشروع ، ينتاب كل انسان الا أنه يتعاظم عند الزوج ، فموت الزوج عندها كارثة وفجيعة نفسية واجتماعية واقتصادية ، فهو سكنها وأمنها وملاذها وهو مبعث الطمأنينة في نفسها ، والقيم على شؤونها . فمن حقها - اذا - أن تخاف عليه ، وتظهر جزعها من الأعداء الذين يتربصون به ، وتحاول - قدر ماتستطيع الوقوف في وجهه ، وثنيه عن سلوك الحياة التي اختارها لنفسه . يقول عروة بن الورد : [3]

تقول لك الويلات هل أنت تارك
ضبوءا بترجل تارة ،وبمنسر
ومستشبث في مالك ،العام ، انني
أراك على أقتاد صرماء مذكر
فجوع لأهل الصالحين ،مزلة
مخوف ردا ها أن يصيبك فاحذر

وهو برجاحة عقله ، وسعة أفقه وعمق وعيه ، يحاول أن يقنعها بصحة تصرفاته ، فنزواته ومغامراته ليست الا في سبيلها ، من جهة ، ومن أجل أن يحقق ذاته ، ويكسب المجد الخالد والأحاديث الباقية ، من جهة أخرى ، يقول : [4] .

ذريني ونفسي ،أم حسان انني
بها قبل أن لا أملك البيع مشتري
أحاديث تبقى والفتى غير خالد
اذا هو أمسى هامة فوق صير

انه يوضح لها أنه يفعل هذا من أجل من يغشاهما من الفقراء أيضا ، فهو محبو بحس انساني رفيع ، يشعر بمسؤولية كبيرة نحو أبناء أرومته ، انه أب لكل صعلوك ، ومن واجب الأب رعاية أبنائه وانقاذهم من ذل الفقر وهوانه ، وهو في سعيه لتحقيق هذا الطموح - لايخاف الموت لأن الانسان لايملك تأخير ساعته ان هي اقتربت : يقول : [5]

فان فازسهم للمنية لم أكن
جزوعا ،وهل عن ذاك من متأخر

---

١ - ديوانه ٩٠
٢- ديوانه ١٠٧
٣- ديوانه ٦٨ - ٦٩
٤- ديوانه ٦٦
٥ - ديوانه ٦٧ .

لقد كان الصعلوك مرنا في علاقته بزوجه ، يخاطبها في لين ورفق ، ويحاول أن يسوغ لنفسه سلوكا ، فهي ان أظهرت البخل ، وأمسكت يدها عن المعروف حيال الآخرين ، أمرها بالبذل والعطاء ، وان أبدت جفاء في معاملتها له ، وتأسفت على زواجها منه ، وأنكرته ، لفقره وبذله المال للمحتاجين ، قابل تصرفها هذا بحكمة ، وخاطبها برفق ، علها تثوب الى رشدها وعدد لها خصاله وصفاته ، ووصف لها طرق عيشه ، علها تتعرف الى طبيعة حياته القاسية ، فتكف عن تنكيدها وسوء تصرفاتها ، وخير من يمثل هذه الحال أبو خراش الهذلي في ميميته التي يقول مطلعها (١) :

لقد علمت أم الاديبر أنني
أقول لها : هدي ولا تذخري لحمي
فان غدا ان لانجد بعض زادنا
نغيء لك زادا أو نعدك بالأزم

وقد رسم في قصيدته هذه صورة دقيقة لجوانب الحياة الزوجية ، عبر من خلالها عن النفور وسوء العلاقة وعدم الانسجام بين الزوجين ، وبين فيها الملامح السلبية لصورة الزوج ، ورصد بعض مواقفها الخاطئة المتمثلة في اثارة المعضلات الأسرية وغيرها .

وسجل عروة موقفا سلبيا آخر اتخذته الزوج من قرينها ، لفقره ، يقول :(٢)

دعيني للغنى أسعى فاني
رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم
وان أمسى له حسب وخير
ويقصيه الندي وتزدريه
حليلته وينهره الصغير

فالزوج قد تتبرم بفقر زوجها لأنها تعلم هوان منزلة الفقير الاجتماعية ، وتدرك عجز زوجها عن تلبية رغباتها ومتطلباتها .

وانطلاقا من هذه الحقيقة في المجتمع الجاهلي ، أبدت تماضر حرصها على المال ، ليس بدافع البخل ، وانما اتخذت سبيلا آخر ، هو حض زوجها على السعي للرزق .(٣)

قالت تماضر اذ رأت مالي خوى
وجفا الأقارب ،فالفؤاد قريح
مالي رأيتك في الندي منكّسا
وَصِباً ، كأنك في الندي نطيح
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة
ان القعود مع العيال قبيح
المال فيه مهابة وتجلة
والفقر فيه مذلة وفضوح

لقد أدركت هذه المرأة أن المال ذو قيمة كبيرة في المجتمع ، وله الفضل والأهمية في طبيعة العلاقات بين الأفراد ، وأن الصلة بين الفرد ومجتمعه مرهونة بما يملكه من مال وجاه .

واذا كانت الحياة الزوجية للصعلوك قد شهدت جوانب مضطربة قاتمة ، كالتي هي في ميمية أبي خراش ، فانها قد شهدت - أيضا - جوانب مستقرة مضيئة كانت المرأة فيها انسانة محبة ، حريصة على ماله وعلى بعائه قريبا منها بعيدا عن المخاطر ، جزعة عليه من أن يصيبه أي أذى . قال تأبط شرا في قصيدة له ، يصف فيها معركة ، دارت بينه وبين أعدائه ، ويعرض موقف امرأته منه ، بعد أن رأت جراحه .(٤)

تولول سعدى إن أتيت مجرّحا
اليها وقد منت عليّ المقاتل

١ - ديوان الهذليين ١٢٥/٢ - ١٣٢
٢- ديوانه ٩١
٣- ديوان عروة ٤٣
٤- شعره ١٢٠

وكائن أتاها هاربا قبل هذه
ومن غانم أو أين منك الولاول

وزوج الصعلوك كأية امرأة عربية تحب في زوجها الشجاعة والمروءة ، وترفض أن يكون جبانا رعديدا ، أو خذولا لأصحابه ، فهذه زوج تأبط شرا ، تعنفه على تركه صاحبا له يقتل بيد أعدائه فيحاول أن يسوغ موقفه لها ، فيعتذر عن فراره من أعدائه ، بأنه ماكان باستطاعته أن ينتظر ؛ ليلحق به أعداؤه ، وكأنهم النحل ، ولا أن يبطىء فتصيبه سهامهم (١) :

ألا تلكما عرسي منيعة ضمنت
من الله اثما مستشرا وعالنا
تقول : تركت صاحبالك ضائعا
وجئت الينا فارقا متباطنا
اذا ماتركت صاحبي لثلاثة
أو إثنين مثلينا فلا بت آمنا
ولم أنتظر أن يدهموني كأنهم
ورائي نحل في الخلية واكنا
ولا أن تصيب النافذات مقاتلي
ولم أك بالشد الذليق مدايئا

فهي تحضه على الدفاع عن رفاقه وحياتهم ومساعدتهم ، اذ حلت بهم مصيبة ، أو واجهتهم مشكلة . تطلب منه أن يشارك أصحابه معاناتهم ، وألا يتركهم يواجهون الخطر وحدهم . انها تريده رجلا يتحلى بالقيم الانسانية المثلى .

واذا ما اتهمته بالجبن ، سارع الى نفي ذلك الاتهام عنه ، مستعرضا بعض صور حياته المضيئة ، مذكرا ببعض صفاته ، وبقتاله الأعداء ، يقول أبو خراش (٢) .

فان تزعمي أني جبنت فانني
أفر وأرمي مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلا
وأنجو اذا ماخفت بعض المهالك

فهو لايخفي عن زوجه فراره ، لأنه فرار الشجاع المقاتل ، لا الجبان الخائف . ومع ذلك ، لايكف عن القتال ، اذا كان في القتال جدوى .

ولكي تكتمل صورة الفارس الذي أحبته ، وتمسكت به ، وأخلصت له ، لابد من أن يكون وفيا لعهده وبرا بوعده ، واذا ما أحست أنه نسي عهدا أو أخلف وعدا كان قد قطعه على نفسه ، أسرعت الى تذكيره به ، كما فعلت زوج الشنفري حين ظنت أنه نسي الوعد الذي أقسم أنه سيبر به ، وهو قتله مئة رجل من بني سلامان لأسرهم اياه ، وهو صغير (٣) .

كأن قد ، فلا يغررك مني تمكثي
سلكت طريقا بين يربع فالسرد
واني زعيم أن ألفّ عجاجتي
على ذي كساء من سلامان أو برد

فهو يعلن لها عدم نسيانه ذلك الوعد ، بل يطلعها على القرارات التي اتخذها والأعمال التي سيقوم بها ، يحدوه فخر بنفسه ، وثقة بسلوكه ، واعتداد بتصرفاته .

للزوج - اذا - أهمية كبيرة في حياتها ، فقد كان يقدر لها الرأي والنصيحة ، ويحرص على أن تكون صورته في عينيها كاملة الصفات ، تامة الملامح غير منقوصة . فاذا ما اتهمته بالجبن سارع الى نفي ذلك الاتهام عنه بما يتوافر لديه من أسباب ومسوغات ، وان هي حضته على الثأر ، لم يتباطأ عن الأخذ به . فهذه أميمة امرأة عروة بن مره ، دخلت على أخيه أبي خراش ، فرأته يلاعب ابنه فقالت له : يا أبا خراش ، تناسيت عروة وتركت الطلب بثأره ، ولهوت مع ابنك

١- شعره ١٤٤ - ١٤٥
٢- ديوان الهذليين ٢ / ١٦٩
٣- الطرائف الأدبية ٣٤

أما والله لو كنت المقتول لما غفل عنك ، ولطلب قاتلك حتى يقتله ، فبكى أبو خراش ، وقال (١) :

لعمري لقد راعت أميمة طلعتي
وان ثوامي عندها لقليل
وقالت :أراه بعد عروة لاهيا
وذلك رزء لو علمت جليل
ولا تحسبي أني تناسيت فقده
ولكن صبري يا أميم جميل

ان وفاء الزوج لزوجها ، هو الذي دفعها الى حض أخيه على الأخذ بثأره ، ولومها اياه على التباطؤ في طلب الثأر،والتغافل عن الاقتصاص لأخيه . يقابله موقف انساني مماثل أضاء جانبا من نفسية أبي خراش ، فهو محب لعروة ، ومفجوع بغيابه لكنه يتسلح بالصبر على فراقه ، لقد استوعب حقيقة مأساته ، وتعامل معها بمنطق العقل ، وهذا ما دفعه الى التريث في رده على تعنيف زوج أخيه له ، حيث أجابها بلهجة ودية ، اتسمت بالتسامح والهدوء والرزانة والتحبب .

ولكن موقف الصعلوك من المرأة الزوج ، لم يسر على وتيرة واحدة من الود والتحبب والهدوء ، فقد كان يتخلله في بعض الأحيان – شيء من التوتر ، فرضته الزوج على زوجها ، بسبب محاولاتها المتكررة ، لمنعه من ممارسة بعض أوجه حياته التي اختارها ، فهي ان فعلت ذلك ، وحاولت أن تحول بينه وبين تحقيق طموحاته ، فانه لايتوانى عن صدها ، مؤكدا رفض طلبها ، فهذه زوج عروة تحاول اغراء زوجها بحلو الكلام ، فيرد عليها بلطف يضاهي لطفها (٢) :

تقول سليمى لو أقمت لسرنا
ولم تدر أني للمقام أطوف
لعل الذي خوفتنا من أمامنا
يصادفه في أهله المتخلف

وتحذر امرأة السليك زوجها من الخطر الذي يتهدده من قبل قومها قائلة له : " احذر خثعم فاني أخافهم عليك " فيرد عليها قائلا (٣) :

تحذرني كي أحذر العام خثعما
وقد علمت أني امرؤ غير مسلم
وما خثعم الا لئام أذلة
الى الذل والاسحاق تنمي وتنتمي

اما اذا تمادت زوج الصعلوك في طلبها كي تمنعه عن القيام بواجباته نحو الفقراء والمستضعفين ، فانه لايتردد في عصيانها ورفض طلبها ، فهناك حدود يجب عليها ألا تتعداها ، وان فعلت باءت بالخيبة والفشل ، فهو يعرف أنه في الاستجابة لأوامر الزوج ضياع لحق الناس عليه ، وهذا يخل بفلسفته ومبادئه فعلاقة الزوج بالصعلوك حددتها ، أو ساعدت على تحديدها الحياة الشاقة التي اختار أن يعيشها . يقول عروة (٤) :

اذا أمرتني بالعقوق حليلتي
فلم أعصها اني اذا لمضيع

لكنها اذا ماحاولت ثنيه عن عزمه ومنعه من متابعة الطريق الذي خطه لنفسه مذكرة اياه بعيالها الذين تخشى عليهم اليتم ، عمد الى ضربها . يقول حبيب الأعلم (٥) :

يدمي وجه حنته اذا ما
تقول تلفتن الى العيال

١– ديوان الهذليين ٢ / ١١٦
٢– ديوان عروة بن الورد ١٠٧
٣– الاغاني ٢٠ / ٣٨٥
٤– ديوان عروة بن الورد ١٠٢
٥– ديوان الهذليين ٢ / ٨٣

فهو يرفض أن يعترض أي انسان طريقه الذي نهجه ، لأنه لم يختر حياة الصعلكة الا ليوفر لنفسه وأهله الحياة التي تليق بهم ، ويبعد عنهم الذل والهوان ، فمحبته لعياله تضاهي محبتها لهم ، وهم أول من يخطر بباله وهو في ساعة الشدة والخطر (١) :

وذكرت أهلي بالعرا
ء وحاجة الشعث التوالب
المصرمين من التلا
د اللامحين الى الأقارب

فشعور الصعلوك بالخوف ، وافتقاره الأمن الوجودي والتاريخي ، جعلاه شديد الاحساس بالحاجة الى الطمأنينة والحماية اللتين لاتوفرهما الا الأسرة الممثلة بالزوج .

واذا كانت الزوج قد شغلت حيزا هاما من حياة الصعلوك العملية ، فانها قد شغلت - أيضا - مساحة هامة في قلبه وعاطفته ، فقد أحبها ، واسترعى انتباهه جمالها الموشح بالوقار اللطيف الذي قل أن وجدناه في أحاديث الشعراء القبليين عن النساء اللواتي عرضوا لهن في أشعارهم . فالشنفرى يستوقفه جمال زوجه المعنوي الموشح بالوقار والجلال اللطيفين (٢) :

فيا جارتي وأنت غير مليـة
اذا ذكرت ولا بذات تلفت
كأن لها في الأرض نسيا تقصه
على أمها وان تكلمك تبلت
أميمة لايخزي ثناها حليلها
اذا ذكر النسوان عفت وجلت
فدقت ،وجلت واسبكرت واكملت
فلو جن انسان من الحسن جنت

وفي حين كان الغزل في الشعر الجاهلي القبلي منصبا على الحبيبة ، وجدناه في شعر الصعاليك - في كثير من الأحيان - منصبا على الزوج ، والتغزل بالزوجات غير مألوف ولا شائع في الأدب العربي ، وهو حقيقة نستطيع أن نستدل عليها من موقف النقاد من رثاء جرير ، فقد عدوا ذلك غريبا " ولكن الصعاليك يشيع في غزلهم الغزل بالزوجات بل لاتقل حرارة عواطفهم في أكثر الأحيان ، حين يتحدثون عن زوجاتهم عنها حين يتحدثون عن حبيباتهم ، ويمكن تعليل ذلك نظريا بكثرة أسفار الصعاليك ، وتنقلهم بين أماكن متباعدة تضطرهم الى الاغتراب والبعد المتواصل ، فيجدون في هذا البعد الحنين الى أزواجهم ما يجده العاشق المحروم من حنين الى من يعشق (٣) .

واذا كان الحديث عن الحبيبة في المجتمع القبلي متسما بمظاهر الحسية والشهوانية ، فان الغزل في شعر الصعاليك قد افتقر الى مثل ذلك اللون من الحديث عن المرأة ، اذ طغى فيه الجانب الروحي الانساني على الجانب الحسي ، يقول الشنفرى متحدثا عن زوجه (٤) :

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها
اذا ما مشت ولا بذات تلفت
تحل بمنجاة من اللوم بيتها
اذا ما بيوت بالمذمة حلت
كأن لها في الأرض نسيا تقصه
على أمها ، وان تكلمك تبلت
أميمة لايخزى ثناها حليلها
اذا ذكر النسوان عفت وجلت

فما يحبه الشنفرى في زوجه هو حسن

١- ديوان الهذليين ٢ / ٨١
٢- المفضليات ١٠٩
٣- شعر الصعاليك ٣٢٩
٤- المفضليات ١٠٩

حديثها ، ووفاؤها ، وحياؤها، وعفتها وكلها صفات معنوية انسانية لامادية حسية ، انه الجمال الخلقي الذي أحبوه في المرأة ، والذي شغلهم عن جمالها الشكلي (الحسي) . لقد جعلهم واقعهم البيئي والاجتماعي ، بما فيه من فقر وبؤس وحرمان ، اضافة الى كثرة أسفارهم واغترابهم المكاني ، بمنأى عن النساء الجميلات ، أو بعبارة أصح ، جعلهم محرومين من المرأة المترفة المنمقة ، وشديدي الحاجة الى ذلك النوع من الزوجات اللواتي يحفظن أزواجهن في حضورهم وغيابهم ، ويخففن عنهم ما يعانونه من شقاء ومكابدة وحرمان ، وهذا لايعني أن الصعلوك انشغل بالجمال الخلقي عن الجمال الخلقي أو الشكلي بشكل كلي ، فقد أعار شكلها الخارجي بعض الاهتمام لأنه بحكم طبيعته البشرية مفطور على حب الجمال ، بيد أن التفاتته الى جمال الزوج الخارجي قد اتصفت بشيء من العمومية وابتعدت الى حد كبير عن ابراز المفاتن الحسية فيها ، وعن كل ما يثير الرغبة الحسية الجسدية ، ويكاد فمها يكون ، بالاضافة الى عينيها ، هما الجزءان اللذان وقف عندهما الصعلوك ويقول عروة متغزلا بزوجه غداة طلاقها (١) :

وقالوا : ماتشاء؟ فقلت : ألهو
الى الاصباح آثر ذي أثير
بآنسة الحديث رضاب فيها
بعيد النوم كالعنب العصير

وأبدى اعجابه بعينيها الحوراوين وما فيهما من حزن وجمال (٢) :

تقول :ألا أقصر من الغزو واشتكى
لها القول طرف أحور العين دامع

سأغنيك عن رجع الملام بمزمع
من الأمر لايعشو عليه المطاوع

لعل أبرز ما يميز هذين البيتين ظاهرة الحزن المتبدية في عيني زوج الصعلوك ، حيث استطاع ، بما أوتي من ملاحظة دقيقة ، أن يتفهم لغتهما ويكشف أسرارهما ، لأنهما مرآة النفس ، ينعكس فيها ما تستبطنه النفس من مشاعر وأحاسيس ، لذلك راح يديم النظر في عينيها وما تحتبسهما من دموع أفرزتها مشاعر الحب والخوف والحزن والرجاء ، فهناك أشياء ، يعجز لسان المرأة عن البوح بها الى شريكها ، لأنها تبقى عصية على أن تتشكل أو تتكون في كلمات ، وعلى الشريك أن يفهم وحده ، ما يدور في خلدها من مطالب ورغبات. وعروة ، ذلك الصعلوك ـ الفارس ، يحس بزوجه ، ويعلم ما ينتابها من مشاعر القلق والخوف بل يستجيب لظلال الحزن المرتسمة في عينيها ، ولكنها استجابة تتحقق وفق اسلوبه في الحياة . فالحزن في عيني الحبيبة بقدر ما يثير الشفقة ويوقد مشاعر الحب ، ويضفي على عينيها جمالا مشوبا باللطف والسكينة والوداعة يكون دافعا للصعلوك ، ومحرضا له على تأمين الحياة الحرة الكريمة لحبيبته ، ولكي يؤمن لها الحياة التي تليق بها بعيدا عن الفقر والذل والهوان ، لابد من أن يتابع غزواته ، ويستمر في غاراته ، ويواجه الموت كل لحظة ، لكي ينتزع منه أسباب الحياة التي ينشدها مع عائلته .

فالحزن في العيون ، ليس له تأثير سلبي على الصعلوك ، فهو لايهزمه ولا يضعفه ، ولا يقف حائلا بينه وبين عزيمته ـ علما بأنه أشد وقعا على المرء من اللغة المحكية ـ بل على العكس من ذلك

١ـ ديوانه ٥٧
٢ـ ديوانه ٩٩

تتجلى ايجابيته في كونه عاملا فاعلا ومحركا يدفع مسيرة المعلوك الى المثابرة من غير تردد أو تريث ، حتى يحقق المجد لأسرته ومجتمعة الجديد .

وأشار عروة في موضع آخر الى جمال صورة زوجه بشكل عام ، فقال (١) :

فراشي فراش الضيف ، والبيت بيته
ولم يلهني عنه غزال مقنع
أحدثه ان الحديث من القرى
وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

فقد اختصر في هاتين الكلمتين (غزال مقنع) مايمكن أن يقوله في المرأة الجميلة وتجدر الاشارة الى أن عروة في تشبيه زوجه بالغزال ، قد كشف عن مدى اهتمامه بالصفات المعنوية للزوج ، بالاضافة الى جمالها الخارجي ، فالغزال يمثل الرقة واللطافة الى جانب البراءة والدعة والأمان هذه الصفات التي يفتقدها المعلوك في محيطه .

فصور الغزال ، هنا ، لم تأت عفو الخاطر ، وانما اختارها عمدا لما تحمله من دلالات ورموز ، فالغزال يرمز الى السلم لأنه " محمي بمقتضى العقيدة الدينية لما له من قداسة ، أو لما فيه من قوى سحرية - على سواء " (٢). وحياة المعلوك تفتقر الى السلام - في معظم الأحيان - وهو أحوج مايكون الى ذلك الوجه البريء المسالم الجميل ، كي يخفف عنه الكثير من المعاناة ويمنحه الثقة بالغد ، والأمل في الوصول الى غايته التي يبتغيها .

ويرمز الغزال الى الأمومة وما فيها من مشاعر الدفء والحب والحنان ، وينظر المعلوك في محيطه والى ما حوله ، فلا يجد هذه المعاني متجسدة الا في زوجه ، ان نظرة من عينيها تبعث فيه الدفء وترد الروح الى نفسه المتعبة حتى تستعيد قواها ، وتصبح أكثر قدرة على التخطي والمواجهة .

فما يفتقر اليه المعلوك في محيطه يجده متجسدا في ملامح حبيبته ، وهو مع ذلك يؤثر ضيفه على نفسه ، ويضحي بتلك الأوقات السعيدة التي يعيشها مع زوجه ، حتى يقوم بواجبه تجاه ضيفه ويقدم له مايسد حاجته .

وهكذا ، لم يقف غزل المعلوك ، عند حدود الغزل المجرد ، بل أفصح في ثناياه عما في نفسه من مشاعر وأحاسيس عميقة الأغوار ، وكشف فيه عن بعض جوانب فكره وفلسفته ، فهو ، وان أعجب بالجمال لايقع تحت تأثيره ، فلا شيء يقف في طريقه ، ولا شيء يحول بينه وبين تنفيذ ما عزم عليه من الأمور ، وما كانت الزوج يوما قادرة على أن تغير مجرى حياة المعلوك ، أو تعترض طريقه في سعيه الى تحقيق مبادئه من إكرام الضيف وإيواء الضعيف والمحتاج ، والكف عن الغزو والاغارة .

واذا كانت طبيعة حياة الصعاليك قد حددت صلتهم بزوجاتهم ، فانها قد حدت من اتصالهم بهن أيضا ، فكان غيابهن عنهن أطول من وجودهم بقربهن ، لذلك كانوا بأمس الحاجة الى تلك اللحظات الوجدانية التي تعيشها معهم زوجاتهم يقول الشنفرى في زوجه أميمة (٣).

فبتنا كأن البيت حجر فوقنا
بريحانه ريح عشاء وطلت
بريحانة من بطن حلية نورت
لها أرج ماحولها غير مسنت

لقد عاش معها لحظات من الحياة المنعمة ،

---

١ - ديوانه ١٠١

٢ - الصورة في الشعر العربي ٦٨ .

٣ - المفضليات : ١١٠

يحيط بهما الجمال اليخضوري من كل جانب هذا الجمال الذي افتقده الصعاليك في حياتهم وفنهم معا ، انه الفردوس المفقود الذي يحلم به ، بعد أن أفرغ جهده في غارة من غاراته اليومية .

ويرغم عروة على تطليق زوجه بحيلة دبرها أهلها ، وقيل : دبرها بنو النضير (١) ، لكنه يعلن بعد تطليقها أنه قد ندم على فعلته ، ويعبر عن حنينه اليها في أكثر من قصيدة له يقول من جملة ماقال في هذا الشأن (٢) .

أرقت وصحبتي بمضيف عمق
لبرق من تهامة مستطير
اذا قلت استهل على قديد
يحور ربابه حور الكسير
تكشف عائذ بلقاء تنفي
ذكور الخيل عن ولد شفور
سقى سلمى وأين ديار سلمى
اذا حلت مجاورة السرير
وقالوا : ماتشاء ؟ فقلت ألهو
الى الاصباح آثر ذي أثير
بآنسة الحديث رضاب فيها
بعيد النوم كالعنب العصير

لانريد - بداية - أن نتحدث عن البرق والمطر وعلاقتهما بحال الشاعر النفسية فهناك مجال آخر لمثل هذا النوع من التحليل . ولكن من المفيد الاشارة الى أن انكشاف السحاب ، وعدم هطول المطر كانا دليلا على انحباس الهم والحزن في نفس الشاعر . لقد أقفرت حياته من مظاهر الفرح والبهجة ، وأقفر المكان الذي عاش فيه مع زوجه من مظاهر الحياة ، فأهمية المكان تنبع من كونه قيمة اجتماعية أو بعبارة أدق ، من كونه مكانا اجتماعيا زاخرا بالحياة والحضور الانساني ، واذا ما تلاشى هذا الحضور وانبعثرت تلك الحياة ، حل الخراب واليباس . فالمطر لم ينهمر ، لأن سلمى رحلت ، ورحل معها الخصب والنماء والعطاء والحنان . ولعله في استحضاره صورة العائذ التي تزود الخيل عن ولدها بوجليها فينكشف بياض بطنها كانكشاف السحاب وتبدده ، يشير الى الأمومة المتجسدة في سلمى ، والتي حرم الشاعر منها بعد رحيلها ، فآلت حياته قفرا خاويا من مظاهر الحياة . ورغم المسافات التي تفصل بينهما ، مازالت تسكن قلبه ووجدانه ، فهي الكائن الذي استوطن وجدانه وكيانه ، يراها أنى ولى وجهه يحن اليها ، ويخاطبها كأنها روح حلت بجسده ، فهي لم تزل الحبيبة التي يخلص لها الود والحب ، ويفخر لها بمواجهته الموت وتحديد له (٣) :

ألم تعلمي يا أم حسان أننا
خليطا زيال ليس عن ذاك مقصر
وأن المنايا ثغر كل ثنية
فهل ذاك عما يبتغي القوم محصر

نخلص الى القول : ان حاجة الصعلوك الى المرأة ظاهرة يمكن للمرء أن يلمس اذا ما استقرأ شعره ، رغم أنه لم يعقد معها علاقات وصلات ، كالتي نجدها عند الشعراء الجاهليين الآخرين ، فهو لايستطيع أن يتجاهل حبه لها وحنينه اليها ، ولا يفتأ يذكرها في غزواته وغاراته . وفي فخره بنفسه وبجماعته من الصعاليك .

قال الشنفرى (٤) :

ألا هل أتى عنا سعاد ودونها
مهامه بيد تعتلي بالصعاليك

١- الاغاني ٣ / ٧٦
٢- ديوانه ٥٧
٣- ديوانه ٧٧
٤- الأغاني ٢١ / ١٦٢

بأنا صبحنا القوم في حر دارهم
حمام المنايا بالسيوفي البواتك
ظللنا نفري بالسيوف رؤوسهم
ونرشقهم بالنبل بين الدكادك

ويبلغ الأمر أقصاه ، حينما يحضره ذكرها ، وهو على حافة الموت ، فالسليك ابن السلكة تلح عليه صورة الزوج الفتية البضة ، حينما حوصر حصار الموت ، وآل أمره الى الهلاك يقول (١) :

من مبلغ جذمي بأني مقتول
يارب نهب قد حويت عشكول
ورب قرن قد تركت مجدول
ورب زوج قد نكحت عطبول
ورب واد قد قطعت مسبول

ففي هذا الرجز الذي جاء وليد الانفعال الآني المنبعث من هذه المواجهة الحادة مع الموت ، تتقلص ملامح المرأة المعنوية ، وتبرز بشكل واضح صفاتها الأنثوية حاملة بين جوانحها دلالات حسية تشد الشاعر اليها . ولعله عمد الى هذه الدلالات الحسية ليعبر من خلالها عن تمسكه الشديد بالحياة ، فالجنس ، في وجهه الايجابي ، هو صانع الحياة ، أو بعبارة أخرى ، يحمل وعدا بتجدد الحياة واستمراريتها والتغلب على شبح الموت المخيف . ولعلنا نلمس في استحضاره الرغبة الحسية نوعا من الفخر الممزوج بالحزن والأسى العميقين ، فحياته التي أمضاها في المجاهدة والكفاح من أجل الحرية حريته وحرية أبناء جنسه ، قد حرمته من الاستئناس بالمرأة والتمتع بوصلها ، وأنى له ذلك ، وهو الشاردفي القفار أبدا حتى انه لطول الفه المفاوز البعيدة ، والبيد المترامية الأطراف قد جعله " أدل الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها " (٢).

كان من الصعب عليه - اذا - أن يصل امرأة أو تصله ، وان كنا لاننفي ذلك الا أن صلته بالنساء كانت واهية لطبيعة الحياة التي يعيشها ، لكن حاجته الى المرأة كانت كامنة في أعماقه ، استطاع أن يقمع رغبته فيها الى حين ، ولكن سرعان ما أخذت هذه المشاعر تطفو على السطح ، عندما اشتدت عليه المصاعب واسودت الدنيا في عينيه ، فعظمت حاجته الى المرأة التي هي الواحة الخضراء في صحرائه ، وأعلن عن هذه الرغبة وازداد من أجلها تمسكا بالحياة ، وبما فيها من جلاوة ومرارة ، وسعادة وشقاء ومغامرة ينتصر فيها أو ينهزم .

لقد مثلت المرأة - هنا حدثا هاما من أحداث حياته التي لخصها قبيل مقتله . يحس المرء حين يستقرئ هذه الأحداث ، ذلك الفخر المسكون بالحنين الموشح بالأسى ، انه شيء شبيه بـ " النوستالوجيا " (٣). وعلى الرغم من أن الماضي لم يشكل حيزا هاما في حياته ، بل كان همه هو حاضره ومستقبله فان حياته تستحيل بكل مافيها- هنا وفي لحظات الوداع الأخيرة لعالمه الذي ملأه بالبطولة والمغامرة - الى ماض يتوق اليه ، ويتمنى أن يمتلكه ، ولكن هيهات فقد وضع الموت حدا لحياته ولمفاخره وطموحاته ، وانتهى مقتولا بطريقة تعتصرها المرارة والخيبة ، ويشفها قليل من العزاء وكانت صورة الزوج الفتية البضة ترتسم أمام ناظريه ، وهو يودع عالمه الوداع الأبدي ، تشيعه موسيقا جنائزية حزينة متجسدة في هذا السكون المنبعث من الايقاع الموسيقي الصامت للأبيات .

١- الأغاني ٢٠ / ٣٨٥
٢- الاغاني ٢٠ / ٣٧٦

٣- النوستالوجيا : هي الحنين الى الوطن أوالتوق الى الماضي توقا غير سوي للعودة ، أوالتوق الى الماضي أوالى استعادة وضع يتعذر استرداده المورد Nostolgia :

المصـــــادر والمراجـــع

١- الاغاني – أبو الفرج الاصفهانـــــي دار الثقافة – بيروت .

٢- ديوان عروة بن الورد – شـــــرح ابن السكيت – تحقيق عبـ د المعيـــن الملوحي – وزارة الثقافة والارشـاد القومي – دمشق .

٣- ديوان الهذليين – السكري – طبـــع دار الكتب المصرية والدار القوميـــة القاهرة ١٩٦٥ .

٤- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلـي د. يوسف خليف – دار المعـــــارف مصر .

٥- شعر تأبط شرا – تحقيق سلمـــــان داود القرغولي وجبار تعبان جاسم مطبعة الاداب في النجف – ط ١ – ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م

٦- شعر الصعاليك ، منهجه وخصائصـــــه د. عبد الحليم حفني – الهيئة المصريـة العامة للكتاب ١٩٧٩ .

٧- الطرائف الأدبية – عبد العزيـــــز الميمني – دار الكتب العلمية – بيـروت لبنان – طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ط ١ – ١٩٧٣ .

٨- المرأة في الشعر الجاهلي – د. أحمـــد محمد الحوفي – دار الفكر العربـــي القاهرة ط ٢-٣ ١٩٦ .

٩- المفضليات – المفضل الضبي – تحقيـــق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هـــارون ط ٦ بيروت .

١٠- المورد – منير البعلبكي – دار العلـم للملايين – ١٩٨٩ .

ABSTRACT.

This essay treats(processes) the relation of Al-sulouk with the woman-wife-and shows her position in himself, life and poetry. I illustrated, in this essay, the importance of the wife for Al-sulouk husband as a very important demand of life and a high artistic value in his poetry.

Through his dialogues with her and speeches addressed to her I throw the light on the feelings and ideas that each one of them holds for the other and which depicts, as a whole and in what they contain, many positive aspects and few negative ones; the depth of tie, close relation and rootage of the warm intimacy and its clearness between two sides while they are passing together the desert of their hard life.